قصة

جناية الآباء

خرجت التلميذات من المدرسة وانتشرن في الشارع ، انتشار فراشات الحقل الجميلة ، وهن يتمازحن ويتضاحكن ، وسارت « نجيات » متنحية عن رفيقاتها ، وهي شاردة الفكر ، تنازعها الهواجس .

وما كادت تسير بضع خطوات حتى طرق سمعها صوت نفير سيارة ، فتطلعت الى مصدر الصوت ، فرأت شاباً جميلاً مرتدياً ملابس ضباط البوليس ، وهو واقف الى جانب سيارة صغيرة ، يضغط على نفيرها ضغطاً متوالياً ، كأنه يريد أن ينبه أحداً الى وجوده ، فعرفت أنها المقصودة بذلك ، واحمرّ خداها الأسيلان ، وأسرعت الخطى منتقلة الى الرصيف المقابل لمكان الشاب ، لكن هذا لحق بها وشرع يستعطفها ، غير انها ازورّت عنه ، واستمرت في عدوها ، دون أن تجيبه بكلمة .

وبينما هي سائرة لا تلوي على شيء ، طرق أذنيها صوت صديقتها آنيسة تقول بلهجة المداعبة : « هنيئاً لك يا نجيات بهذا الضابط الجميل ! »

فاضطربت الفتاة والتفتت الى صديقتها مجيبة بحدة : « ما كنت أظنك سيئة الظن بي الى هذا الحد » .

— لا تحسبي أني غافلة عن تصرفات هذا الشاب ، فاني أراه كل يوم ينتظر خروجك من المدرسة ليسعى لمحادثتك .

— وهل رأيت مني ميلاً للنزول على إرادته ؟

— كلا ! ولكني ألومك على هذا الجفاء

— ولماذا ؟

— لأن سترى هذا الفتى الجميل لا يُعرض عنه، لاسيما اذا كان شابًّا قد تيّمه الغرام وبرّح به الحنين.

— بالطبع ونعمة أجابت الصديقة: فمن واجب الفتاة أن تعرض عما يشين سمعتها مهما كان الاغراء شديداً

— هذه نظرية جديرة بالاعتبار، لكنها لا تلائم عواطف فتيات في سننا، لم تتفتح بعد أزاهير حياتهن، فكل منا تودّ أن تكون محبة، وكل منا تود أن تكون محبوبة، ويا حبذا لو كنت مكانك، وحزت قبولاً في عيني هذا الضابط الجميل.

لم تجب نجيات، بل آثرت الصمت، لأنها كانت تعرف استهتار رفيقتها وجموح نزواتها، فتابعت سيرها صامتة في لجة من التفكير، حتى اذا وصلت الى منعطف الطريق سارت وحدها بعد ما حيّت رفيقتها بلطف، وقصدت منزلها وقد تملكها اضطراب شديد، وما كادت تلج الباب الخارجي، وتجتاز ممر الحديقة التي تحيط به من الجانبين عرائش الياسمين، حتى طرق سمعها صوت زغاريد منبعثة من المنزل، فوقفت مرتعدة وقد اشتد خفقان قلبها، لكنها تغلبت على عواطفها وتقدمت ببطء، لأنها شعرت بأن رجليها أصبحتا عاجزتين عن حملها، ودخلت غرفتها دون أن ينتبه أحد لمجيئها، وألقت جانباً ما تحمله من كتب وكراريس، وارتمت على مقعد ممتدة وجهها بيديها، وطفقت تبكي بكاء مرًّا.

لبثت على هذه الحالة مدة، وهي مستسلمة بكليتها الى البكاء، حتى تقرحت أجفانها واحمرّت عيناها الجميلتان، وازداد تورّد خديها الأسيلين، فطرق أذنيها صوت والدتها تقول لها:

ما ذا دهاك يا نجيات؟

فرفعت الفتاة رأسها، وتطلعت الى أمها بعينيها الكحلاوين المغرورقتين بالدموع، وأجابت بلهجة العتاب الرقيق:

ألا تعرفين «يا أمي»؟

— لا أعرف سوى أن ابنتي غبية، تبكي لأننا نعدّ لها معدّات الزفاف.

— أجل يا أمّاه، فهذا الذي ينغّص عليّ عيشي، ويسوّد الدنيا في عينيّ

— إنك حمقاء بلهاء ، لا تميزين بين ما يضرك وما ينفعك .

— بل أنا ذاهبة أعرف ما يُجيبُ لي ، فأنتم تقودانني الى هلاكي وتعاستي وإنكما تُنكما تعملان على هنائي وسعادتي .

— لم تزالي بعد صغيرة لم يدركك الزمن ولم تختبري الحياة ، فخير لك أن تتزوجي بعجوز غني يدللك ويحفظ كرامتك من أن تتزوجي شابًا مُدقعًا فيسيء إليك ولا ينيلك ما تسعدين به وعقلك .

فقالت نجيات باستعطاف .

تذكري يا أماه إني في السابعة عشرة من عمري ، وان من تريدين أنت وأبي أن تزفاني اليه قد أربت سنوه على الستين ، وأني متعلمة وهو أمي لا يحسن حتى رسم اسمه ، فضلاً عن تفاوت عمرنا ، وتباين نزعاتنا ، واختلاف مبادئنا ، وأني من سكان العاصمة وهو من سكان أقاصي الصعيد ، فهل في شرعة الانصاف أن أقرن حياتي بحياته والبون بيننا كما بين السماء والأرض ؟

— أكرر لك أنك غبية لا تدركين معنى الحياة ، فكل هذه الفوارق التي تتشدقين بها تزول أمام المال ، فهو الراحة والصفاء ، والحب والهناء ، وما عداه فتعاسة وشقاء ، فارجعي يا بنيتي الى عقلك وثوبي الى رشدك ، واقبلي السعدة زوجاً لك تنالي رخاء العيش وليانه ، وتتطلعي الى المستقبل وأنت آمنة مطمئنة .

فبكت نجيات وصاحت مستعطفة :

رحماك يا أماه ! لا تضحي غصن حياتي الرطب الى عود حياته اليابس ، ولا تجمعي بين ربيع عمري المتفتح الأزهار ، وبين شتاء عمره المليء بالأمطار والثلوج .

فأجابتها أمها بحدة :

كفى عناداً أيتها الابنة المغرورة ، لقد اخترنا لك هذا الزوج فيجب أن تقبليه ، إذ الكلمة لنا في هذا الأمر ، وما عليك سوى الطاعة والاذعان ، ونصيحتي أن تتخلي عن هذه المقاومة التي لا تجدي نفعاً ، لأن أباك أقسم أن يرغم أنفك بها كلفه ذلك ، فكل شيء أُعِد كما تعرفين ، وسيعقد له عليك في الأسبوع القادم .

قالت أم تحيات هذا وخرجت غضبى دون أن تهتم بابنتها ، فارتمت هذه على سريرها ، وألقت برجهها على الوسادة ، وظلت تبكي وتنتحب حتى كاد قلبها ينفطر أسى ولوعة .
وكانت القريبات والصديقات مجتمعات في المنزل ، وهن يساعدن في اعداد الجهاز ويغنين ويزغردن ، فكانت أصواتهن تصل الى مسمع تحيات كأنها نواح وعويل لفقد ميت ورحيل عزيز .

* * *

قضت تحيات ليلتها في حالة تمت القلوب وتذيب الأفئدة ، فكانت تارة تبكي وتنتحب حتى يكاد يُغمى عليها ، وتارة تسير في الغرفة ذهاباً وإياباً وهي في حالة اضطراب شديد ، وأخرى يتولاها ذهول والحماظ تمي وحمى ، فترتمي على مقعد وتلبث جامدة لا تتحرك كأنها تحولت إلى تمثال ، لكنه تمثال الحزن والألم .
وما كانت الشمس ترسل أشعتها في الفضاء حتى نهضت تحيات متحاملة على نفسها ، وأصلحت من هندامها ، لأنها لم تخلع ملابسها طيلة ليلها ، وحملت كتبها المدرسية ، وخرجت قبل ان تدب رجل في المنزل .

* * *

انقضى النهار ووالدة تحيات ومن يعاونها من النساء منهمكات في إعداد معدات العرس ، حتى اذا ولى النهار انصرفن الى بيوتهن ، ولم تبق سوى عزيزة هانم ، وهي جارة تسكن في الشقة المقابلة ، فقالت لأم تحيات وهي تتطلع الى الساعة :
ألا ترين ان ابنتك تأخرت كثيراً اليوم ؟
فالتفتت اليها أم تحيات ، وقد نبهها هذا السؤال الى غياب ابنتها وأجابت باضطراب :
نعم يا عزيزة هانم ، ولا أدري لهذا التأخير سبباً ، لا سيما وهي لم تتعوده .
— قد تكون ذهبت لزيارة أحد صويحباتها
فقالت واضطرابها يزداد من دقيقة الى أخرى :
لا أظن ذلك ، لأنها لا تزور في مثل هذا الوقت .
وفي الحال نادت الخادم وأمرته بالذهاب الى المدرسة والاستفسار عن سبب تأخر تحيات

وتركت ما في يدها وجلست الى جانب جارتها والهواجس تساورها ، والأفكار تتنازعها ، وتذهب بها كل مذهب .

ساد السكوت بين الاثنتين ، وكل منهما منشغلة بما تصوّره لها مخيلتها ، حتى قطعت عزيزة هانم حبل هذا الصمت المُضني قائلة :

أتسمحين لي يا احسان هانم بأن أصرح لك بما في نفسي ؟

فتطلعت إليها احسان وأجابت بحزن :

تكلمي أيتها الصديقة فإني مستمعة اليك .

— لقد تغيرت تحيات منذ شهور تغيراً محسوساً ، فذهب وجهها الجميل ، وذبلت نضارة وجنتيها ، وارتسمت على أساريرها آيات الكآبة ، واستعاضت عن مرح الشباب برزانة تجمع بين مرارة الأسى ولوعة الألم .

فتنهدت احسان هانم طويلاً وقالت :

هذا هو الواقع أيتها العزيزة .

— وأكبر ظني انه ناشىء من هذا الزواج التي تسعين إليه ؟

— لا أخفي عنك ان تحيات غير راضية من زوجها لأنه عجوز غير مثقف بل لا يُحسن القراءة والكتابة .

— إني أشاطرها هذا الرأي .

— عجباً أيتها الصديقة ! أتريدين اذن ان تتزوج بشاب لا يملك قوت يومه ، لكونه في ريعان الصبا ومقتبل العمر ، فأتركها تذوق معه مرارة الفقر وذل الحاجة ، وأرفض رجلاً غنيًّا يغدق عليها خيرات الدنيا ونعم الحياة ، لأنه طاعن في السن .

— نعم يا صديقتي ، لأن المال لا يجلب السعادة ، وحرام عليك أن تلقي بابنتك في هوّة الشقاء بتزويجها بعجوز يصح أن يكون جدًّا لها ، فأنتِ وزوجك لله الحمد في رغد من العيش ، وهي وحيدتكما ، ولكما من أموالكما ما يغنيكما عن تقديم ابنتكما ضحيةً على مذبح المطامع ، فاربأا بها وبنفسيكما ، لأن مثل هذا الزواج يكون دائماً تعساً وشقاء ، لا راحة وهناءة .

حتى احسان هانم بتنفيذ رأي جارتها ، لكنها أبصرت الخادم مقبلاً فبرزت اليه مستفهمة ، فأخبرها بأن تحيات خرجت من المدرسة كالمعتاد في الساعة الرابعة وانصرفت ، فتطلعت احسان الى الساعة المعلقة في الحائط وألفتها السابعة ، فسرت في جسمها رعدة خوفاً على ابنتها التي لم ترزق بها الا بعد سنين من زواجها ، وكانت تحبها حباً يقرب من العبادة ، وحبها هذا هو الذي حملها على تزويجها بثري ، لتجعلها تأمن من غدر الخؤن وتقلب الزمن .

وفي تلك البرهة أقبل زوجها ، ولما أطلعته على غياب ابنته كاد يجن خشية أن تكون قد أصيبت بمكروه ، لأنه كان يحبها من صميم فؤاده ، ويروم اسعادها بهذا الزواج الذي يعتقد بأنه غاية المنى ، ومنتهى ما تصبو اليه الأماني .

وعاد من فوره قاصداً المدرسة ، لكنه لم يفز بأكثر مما فاز به خادمه ، فذهب من ساعته الى القسم وأخبر ضابط البوليس بغيبة ابنته ، فاهتم الضابط بالامر وشرع في القيام بالتحريات اللازمة لمعرفة ما حل بالفتاة .

***

ذهبت مساعي والدي تحيات أدراج الرياح في البحث عن ابنتهما كما ضاعت جهود رجال البوليس سدى ، إذ ظل ما جرى للفتاة سراً خفياً لم ترفع عنه الحجب ، فتبدلت الأفراح أتراحاً ، وانقلب العرس الى مأتم ، وأخذ الأب يبكي ابنته وينحي باللائمة على نفسه لظلمه وعدوانه ، ولتحتيمه عليها قبول ذلك الزوج الذي كانت تنفر منه وتأباه ، وشرعت الأم تندب فلذة كبدها ، ساكبة دماء قلبها ، لا دموع عينيها ، وتعض أناملها ندماً على ما فرط منها في حق ابنتها ، وتعد نفسها بأنها لو عادت اليها لأحلتها في سواد عينيها ومهجة فؤادها .

مضى على اختفاء تحيات شهران ونيف ، دون أن يظهر لها أثر ، أو يصل عنها خبر ، فتطرق اليأس الى قلبي والديها ، وأيقنا بأنه لم يعد ثمة أمل في لقائها ، فاعتزلا الناس واعتكفا في بيتهما ، يواصلان سواد الليل ببياض النهار ، في بكاء وعويل ، وحسرة وألم ، حتى أصبحا في حالة يرثى لها .

وكان لاحسان هانم أخ قد بلغ من العمر عتياً ، لكنه رغم كبر سنه كان عصري الفكر ، يأبى التقيد بالعادات القديمة البالية ، التي تصيب الأمم بأضرار بليغة ، وطالما نصح أخته بعدم التمسك بأذيال هذه التقاليد ، لكنها كانت تهزأ بآرائه ولا تعيرها أذناً صاغية.

في ذات يوم أرسل يستدعيها وزوجها على جناح السرعة ، لأنه في حاجة ماسة إليهما ، فنهضت احسان هانم وقد خفق قلبها ، دون أن تدري سبباً لهذا الاضطراب ، وأسرعت إلى بيت أخيها بصحبة زوجها الذي لم يكن أقل اضطراباً منها .

ولما استقرّ بهما المقام هناك ، قال شقيق احسان هانم لأخته : لقد احتملت من الآلام ما تنوء بحمله العواتق والمناكب ، وأظنك تعلمين بما مرّ بك ؟

فهزت احسان هانم رأسها بحزن ، وانهمرت الدموع من عينيها ، دون أن تفوه بكلمة ، فاستتلى قائلاً :

واذا منّ الله عليك وعلى زوجك بما يزيل كربكما فهل تحمدانه على نعمه وآلائه ؟

فصاح الاثنان بلهفة : وهل عندك خبر عن نحيّات ؟

لا أقدر أن أجيب على هذا السؤال ، ما لم تطلعاني على رأيكما بشأنها فصاح الأب :

وأي رأي لنا سوى أننا ننتظرها ونحن على أحر من الجمر ؟

وقالت احسان باستعطاف :

حنانيك يا أخي ، قل لنا أتعرف شيئاً عنها ؟

— نعم لكنه ليس بالكثير

— بالله عليك اسرده لنا ، أخبرنا بكل ما تعرف

— واذا أمكنني أن أدلكما على مكانها ؟ . . .

فنهض الوالدان وصاحا معاً :

رحماك أين هي ؟ هيا بنا إليها ولو كانت في أقصى المعمورة

— إنها ليست بعيدة بهذا المقدار ، فهي . . هنا

— أين ؟ أين ؟

— هنا في هذا البيت .

وفي الحال دخلت تحيات ، فألقت أمها بنفسها عليها وضمتها الى صدرها ، وهي تكاد تغيب عن الوجود من شدة الفرح ، وأسرع إليها أبوها وعانقها وهو يكاد لا يصدق أن ابنته عادت إليه .

لكن تحيات تملصت برفق من عناقهما ، ووجهت خطرات الى الوراء ، ووقفت مطرقة الرأس ، والدموع تسيل من مآقيها ، فتطلعت إليها أمها وهالها تغير حالها واضمحلال جمالها ، حتى لم يبقَ منها سوى خيال أو شبه خيال ، فقد أصفرّ وجهها البديع ، وتغضنت بشرتها ، وغارت عيناها ، وانطفأ بريقهما ، وتوقّد خداها ، وهزل جسمها حتى أصبح ثوبها فضفاضاً ، فصاحت أمها من صميم فؤادها .

ما ذا أصابك يا تحيات ؟

فازداد بكاء الفتاة وخبأت وجهها بيديها وأخذت تنتحب ، فأسرعت إليها أمها وحاولت ضمها ثانية الى صدرها ، لكن تحيات أبعدتها عنها بلطف قائلة بصوتٍ ضعيف :

لا تضميني يا أمّاه ، لأني لست أهلاً لذلك

قالت هذا وغطت وجهها بيديها الهزيلتين وأجهشت بالبكاء ، فصاحت أمها :

ماذا تقولين ؟

— أقول الحقيقة ، فأصغي إليّ يا والدتي ، واستمع لي يا أبي ، ولا تقاطعاني لأن دقائقي معدودة .

فكادت أمها تجن ، وهمّت بالكلام ، فأشارت تحيات إليها قائلة بصوت فيه رعدة :

مهلاً يا أمّاه ، لا تضيعي الوقت ، لأنّ دقائقي أصبحت معدودة كما قلت لك . . .

وتوقفت عن الكلام ، ووضعت يدها المرتجفة على بطنها كأنها تسكّن ما بها من ألم ، ثم تنفست بعمق وأردفت بصوت مرتجّ :

أصغيا إليّ لأقصّ عليكما ما أصابني :

خرجت من المدرسة في اليوم الذي لم أعد فيه إليكما ، فقابلني شاب صادفته في ايام ، أطلعتُ خالي على إسمه ، وكان ينتظرني كل يوم قريباً من المدرسة ، ويتودّد لي ، ملقياً على مسمعي كلمات الغواية التي تخلب عقول الفتيات ، فكنتُ أزورُّ عنه ، وأتباعد عنه ، دون ان أجيبه بكلمة ، لكني في ذلك اليوم كنت ضعيفة جسماً وإرادة ، لاني لم أنم ليلة

ليلتي من كثرة البكاء لاصرارهما على تزويجي بذلك العجوز الذي أنفر منه ، فضلاً عن إني كنت أتمنى الابتعاد عن البيت خشية ان تضطراني الى الزواج على كرهٍ مني ، فتبعني الشاب كالمعتاد ، وشرع يسرد على مسمعي كلماته المعسولة ، فشعرت بضعف عن مقاومته ؛ لكني تابعت سيري ، مستمدة قوة من متانة أخلاقي ، وهو يلاحقني ويغشيني بالوعود الخلابة ولا سيما بالزواج ، حتى شعرت بأن قواي تتلاشى رويداً رويداً ، فوقفت وتطلعت إليه قائلة :

ماذا تريد مني ؟

فأجاب :

أريد أن أتخذك زوجة لي ؟

فسألته :

أجادٌ أنت في أقوالك ؟

فصاح وهو يكاد يترامى على قدمي :

وهل شيء يدعو الى العبث بك أيتها الحسناء ؟ تعالي لأُقدمك الى والدي التي طالما كلمتها عنك .

فصاحت أمها :

ويلك يا تحيات !

فقالت الفتاة وهي تضغط بأناملها على أحشائها ، وقد اكفهر وجهها وتساقط منه العرق البارد :

أماه رحماك ، انصتي الي لأتم حديثي قبل فوات الوقت ، لاني لا أقدر ان أتكلم إلا بصعوبة .

وهنا ازداد اكفهرار وجهها ثم احتقن فجأة ، وتوترت أساريره ، وجحظت عيناها وكادت تسقط أرضاً ، لو لم تعتمد على مقعد الى جانبها ، فأسرعت إليها أمها صائحة :

تحيات : ماذا أصابك ؟

فأجابتها باشارة من يدها وأخذت تتلوى كالأفعوان وهي تعتمد بطنها بكلتا يديها وقالت :

لا شيء يا أماه .

وبعد ما سكتت قليلا وهي تتنفس ببطء وعمق حتى كان تنفسها يخرج زفيراً من صدرها ، استأنفت بصوت يكاد لا يُسمع :

في موجزة ، فقد ركنت الى الضابط ، وذهبت في سيارته الى . . بيته . . كما ظننت لكنه عوضاً عن أن يقودني الى أمه ، كما وعدني ، قادني الى منزله الخاص ، بعد ما أطمعني

قطعة من الحلوى لم أدرِ ما فيها .

ولما أفقت من غيبوبتي وجدت نفسي .. ويا للهول ..

قالت هذه الكلمة بصوت مرعب مخيف ، وسقطت على الأرض تئن أنيناً موجعاً ، وهي تتقلب بطناً لظهر ، فأسرع اليها أبواها وخالها وأنهضوها ، وهم يكادون يجنون خوفاً عليها ، وأجلسوها على مقعد ، لكنها أبعدتهم عنها ، وهمّت بالنهوض فخانتها قواها ، وسقطت على ركبتيها ، غير أنها استطردت بصوت متحشرج :

لقد هتك عرضي ، وخيرني بين الذهاب الى بيت أبوي حيث لا ألقى سوى الموت ، وبين أن أختبئ عنه في مكان آوي اليه ، يبعدني عن عيونكم وعيون الناس أجمع فاخترت الأمر الثاني .

ولم أدرِ كنه ذلك المأوى إلا بعد أن دخلته ، فاذا به مكان للدعارة ، تديره امرأة عجوز شرسة الطباع ، وحشية الأخلاق ، تأتمر بأمر ذلك الضابط الوغد ، لأن عملها يقع في دائرة نفوذه . فكنت أسام الذل ، وأحمل الهوان ، وأضطر مكرهة تحت تأثير الضرب والتهديد الى بيع جسدي لمرتادي تلك البؤرة .

فاهت بهذه الجملة الأخيرة بصوت خافت مرتعد ، وقد برح بها الألم ، فسقطت على وجهها .

وكان أبوها وأمها يستمعان اليها ، وهما ذاهلان جامدان كأنهما فقدا الحس والشعور فهبّا اليها لينهضاها ، وهما لا يقويان على النهوض بكلمة لشدة وجومهما ، لكنها خانتها قواها المتخاذلة ، ورفعت رأسها مستندة الى مرفقها ، وتطلعت اليهما بعينين جامدتين متحجرتين وقالت بصوت يكاد يضيع في غمغمتها لخفوته :

لقد شربت سماً زعافاً قبل أن أدخل عليكما ، وهو الآن يمزق أحشائي ، فأشعر بأن فيها أتون نار ، يصهرها بأواره المضطرم .

وأرادت أن تستوي على ركبتيها لكن قواها خذلتها فاستلقت : لقد مكثت في ذلك الجحيم الأرضي أكثر من شهرين ، ولم يتسنَّ لي الهرب منه إلا اليوم لشدة الرقابة عليّ ، فتزودت بسم شديد الفتك ، وقصدت منزل خالي لعلمي برقة قلبه ، ونبل عواطفه ، وقصصت عليه واقعة حالي ، طالبة منه السعي لي ، لأتزود منكما بنظرة أخيرة قبل أن أرحل عن هذه الدار ، التي لم تمدّني بغير الشقاء والتعاسة .. آه .. أحشائي تتقد .. فؤادي يلتهب .. لم أعد أبصر شيئاً .. فالوداع يا أبي .. الوداع يا أمي .. سامحكما الله .

قالت هذه وسقطت على الأرض وأسلمت الروح .

[illegible] — جرجي نيقولاوس